# المقـدمـــة

# الســـياســة بين المنطق والغـريزة

طلب ناشـر كتبي تزويده بمقدمة هذا الكتاب في وقت لم أكن قد إنتهيت فيه بعد من كتابة جميع فصوله .. فأخـبرته أنّ مقدمة كتابٍ من هذا النوع لن تُكتب قبل أن توضع جميع أجزائه على الورق بسبب عامل مركب .. نفسي وفني ، فهذا الكتاب هو أشبه بسلسلة قصص مروية عن وقائع ، تتحرك فيه شخوص صنعت الأحداث أو رافقتها ، كما يتحدث فيه صنّاع تلك الأحداث والشهود عليها ، وقد تركتهم يتحركون بتلقائية ويُسر دونما إقحام للأفكار المبيتة مسبقاً حتى لا تخل بإيقاعات الأفعال ونبض أشخاصها ، ونشأت لذلك علاقةٌ أقرب الى علاقة الروائي بأبطال روايته ، عندما لا يتدخل لتغيير قناعاتهم أو تحسين صورهم ، إلا في اللحظة التي يحتاج فيها الى تكوين المشهد أو ترميمه .. إنـها لمسات لصناعة المسافات الصغيرة بين الأحداث وتفاصيلها ، لذلك لا ينبغي للقارىء أن يتوقع قراءة عـرض فكـري يمليه متربع على كرسي منصوبة في علو ، بل عليه أن يتـهيأ لمرافقة الأحداث عبر شخوصها ودقائق لحظاتها .. وسيدرك هو في أي إتجاه تستقر البوصلة ..

.. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب معـني بالسياسات لا بالأشخاص ، وباللحظات الحرجة من التاريخ وليس بدرجة الرفض أو الرضى نحو أشخاص بعينهم .. إلا أن ذلك لا يلغي حقيقة أن التاريخ هو نتاج حركة أفراد سواء كانوا بناةً كباراً أو مُدمرين جبابرة ..

فلا تاريخ بلا أبطال ، ولا تاريخ بلا شهود ، وقد لا يكون الأبطال طيبين ، قد يكونون أشراراً ، وقد لا يكون الأبطال منتصرين ، قد يكونون مهزومين فاشلين ، أما الشـهود فلـيس شـرطاً أن يكونوا كلهم شهود حق ، فلا شك أنّ بينهم شـهود زور وآخرين يروون شهاداتهم في لحظة الهلع والدهشة فتأتي مرتبكة مبالغاً فيها ومشوشة .

وسيرى المتفرج على هذه المشاهد ، أنّ الروايات التي تعرض ما جرى بعد حرب الخليج هنا ، و على حافات مرحلة ما بعد الحرب الباردة في العـالم كله ، تقـدم شـخوصاً كانوا يتـحركون مـنذ أكثر مـن ربـع قرن ، ووقائع تعود الى زمن أبعد من ذلك ، وأنّ هناك تجربة شخصية متسربة كان متعذراً إخفاؤها أو إلغاؤها ، لأنّ الكاتب نفسه في هذه الحالة شاهدٌ رأى الكثير ، وقرر أنّ يبوح به في اللحظة التي يشعر فيها أنّ هذا البوح يجيب عن أسئلة عالقة في تاريخ العرب ، وقبله تاريخ وطنه العراق .

❁ ❁ ❁

ثمة معضلة في التعامل مع صنُاع الأحداث .فما أصعب أن تطلب من السياسيين الإعتراف بوجود خلل ما في أسلوب التعامل مع الأحداث والتهيؤ لملاقاتها .. إنني أُدركُ حقاً صعوبة الإعتراف في هذه اللحظة .

فهل حان الوقت الذي يُقر فيه صانعو الأحداث الكبرى أنهم إتخذوا قراراتهم طبقاً لنوع مـن ( الغريزة السياسية ) وليس تأسيساً على المعرفة السياسية وخـبرتها وعقلانيتها .. ؟ ..إن أمامنا ما يستحق أن يـوصف بأنه ( غريز – قراطية ) في سلوك السياسيين ، أي أنّ ما تحكّم بهم كان قدْراً من الحس الغريزي الذي تختلط فيه الأماني مع التوقعات ومحاولة تقمص شخصيات من أزمنة غابرة أو تكرار الأحداث على نمط ما جرى منذ مئات السنين أو حتى آلافها .. وقد تصيب هذه الغريزة أحياناً بعض السياسيين فتُوهم صاحبها بأنه مخلوق ذو حس لا يُخطيء وأن توافر قَدْرٍ من العزم على مقاومة الفشل يعني بلوغ النـجاح في النهاية بغض النظر عن عدد الضحايا ومقدار التضحيات ، وبغض النظر عن إنهيار بناء عمر كامل ما دام هناك في النهاية ( نصرُ ) ما .. حتى لو كان هذا الظَفَر مقابل زوال سكان المدينة كلها لتتمتع بالنصر في النهاية حيطانٌ وأبنيةٌ

وبقايا مدن .

ومن الصعب حقاً إقناع أصحاب هذه الغريزة السياسية بإخضاعها للمعرفة والخبرة والتأمل والتشاور ، وبالتالي فإنّ الغريزة بطبيعتها تقاوم مشاركة الآخرين في صنع القرارات الكبرى وتصبح بالتالي النقيض الدموي للرأي الآخر ..

إنّ الإحساس بالتاريخ نمطٌ من المواهب النادرة ، لكنه ليس كافياً وحده لتسيير شؤون الشعوب وتحديد مصائرها .. ولن تصبح حاسة الشم التي تتنبأ بالوقائع الآتية نافعة إذا ما خاض صاحبها معاركه في مواجهة مع مَنْ يستخدم العقل جيداً ويتحسب لهذه الوقائع ويخرج لمقابلتها بإعداد جيد .

فالغريزة السياسية ، أياً كانت النيات ، ومهما بلغت حسناتها ، ليست سوى عنصر واحد من عناصر صنع السياسات لا العنصر الوحيد الذي قد يقود إلى النجاح مرة أو مرتين ، إلا أنه يقود في النهاية إلى الفواجع حتماً .. لأنه يتيح الفرص للعمل الفردي ويلغي العمل الجماعي وقواعده وقوانينه .

إنّ علينا الإعتراف بخيبة الأمل التي يُصاب بها أولئك الذين يبحثون عن خفايا القرارات الحساسة والمواقف الحاسمة في تاريخ الشعوب ، وأنا واحد منهم في محاولاتي على صفحات هذا الكتاب .. فهذه المرة تلاشت كل أوهامي في جمع زجاج متناثر صار يُطحن تحت أقدام المتنازعين والمتخاصمين .. فقد خرج الناس من ميادين الحروب ، إلا أن نيرانها ظلت تشتعل في النفوس مؤججةً الكراهية حد الإستعداد لإبادة الخصم .. وإبادة الذات ، في حين تناثر الضحايا العرضيون على أطراف ميادين الحروب من ضفاف شط العرب إلى حافات باب المندب ، ومن قمم جبال كردستان حتى أدغال جنوب السودان .. ومن سواحل كمبوديا مروراً بصراعات إفغانستان ، عبوراً إلى حروب الطوائف والعروق من أبخازيا وجورجيا وطاجكستان حتى أرمينيا وأذربيجان بلوغاً إلى مياه الخليج ، صعوداً إلى منطقة البلقان حتى حافات ( الأدرياتيك ) ..

.. كانت الدول تتساقط ، والزعماء ينتحرون أو يُزاحون في إيقاع متسلسل يشبه تساقط أحجار الدومينو التي شملت كل من كان ساكناً .. أو مستقراً ، فمنهم من قاوم الإهتزاز وتشبث بالأرض ، ومنهم من أخذه التصدّع .. وتساقط ، سواء كان تياراً أو فكرة أو حزباً أو حاكماً أو زعيم عصابة للمخدرات .. إنّ عالماً آخر يخرج من تحت قشرة عالم كان قائماً على توازن الرعب وتماثل الأدوار و القدرات ..عالم جديد يولد دون أن ينشأ فيه تساوٍ أو توازن ..

فمن شاوشيسكو في رومانيا حتى زعيم عصابات المخدرات في كولومبيا غادر حكامٌ كثيرون المسرح مضرجين بدمائهم أو مستسلمين بكامل أناقتهم .. كان هناك من يستسلم بكثير من التهذيب كما فعل أندريوتي في إيطاليا ، أو يستسلم بكثير من عدم الرضى عن الذات كما فعل زياد كمزاخورديا الذي إنتحر في جورجيا .

إنّ المفجع هو إيهام النفس أنّ بالإمكان إنهاء النزاعات دون أن يكون هناك خاسر .. إذْ لا حلول وسط ، وإذا ما بدت فإنها هدنة للمتحاربين لإعادة ترتيب الصفوف ..

❀ ❀ ❀

قبل المضي خطوة الى أمام قد تكون هناك حاجة للإلتفات الى الخلف عودة الى ثلاث سنوات مضت حين صدر لي كتاب عن حرب الخليج عندما كنتُ أعاينها من الضفة العراقية يوم كنتُ ما أزال هناك ..

فقد رافق صدور ذلك الكتاب قَدْرٌ هائل من التشويش وتحريف التفسير ، وبخاصة من لدن جوقة منظريّ الفشل ، الذين يعتاشون في ظل غياب المعلومات وسيادة السفسطة .. إنّ الكتاب ، أي كتاب ، لا يحتاج الى مفسرين ، ولم يكن لمن هو مثلي أن ينتدب أحداً لشرح كتابه ، فقد قلتُ كلمة في درجة حرارة محددة ، في زمانها ومكانها وظرفها وقيدها . وكانت تلك الكلمة جزءً من الحقيقة ، بل جزءً من حقيقة ، ولا شك أنّ هناك أجزاء أخرى ستتبعها في الظهور ، مضافاً إليها قَدْرٌ أعلى من حرية القول ، وقَدْرٌ أكبر من الرغبة في مقاومة التجهيل وتغييب المعلومات ، ودافع أعمق من أيٍ من القَدْرين ، هو الإدلاء بشهادة جيل ثانٍ من المفكرين وشهود التاريخ . هذا الجيل الذي رأى كل شيء

ووجد في النهاية أنه مطلوب فقط للبناء في العتبات التحت ليندثر في طوابقها ويندرس فيها بعد ذلك ، دون أن يتمتع بحق الإطلال من فوق الشواهد العليا لما شيّد من بنيان .. فمتى كان للعبيد حقٌ أكبر من حق طاعة الأوامر ، حكيمها وأبلهها ..؟ .. إنه جيل بنى وشهد وعرف ، وحقّ له أن يقول بعضاً مما رأى وعرف وشهد عليه ، وهو غير معنيٍّ بتدبير المؤامرات والدسائس أو الرد عليها ، لأنه جيل آدمي يمثل عموم الناس ولا علاقة له بالصراع المزمن وغير المنصف بين « الآلهة » المتنازعة على السلطة ، ولا يتجاوز مشروعه خلق المفاهيم الصحيحة وبناء مجتمع متطهر من التخلف والعنف والقسوة والغبن والتفرقة ..

❃ ❃ ❃

كنتُ أتمنى أن يناقشني المعنيون بالوقائع في كل ما ذهبتُ إليه ، حين قلت بأنّ العراق دخل مواجهة شاملة وكبرى مع الولايات المتحدة في وقت كانت فيه معلومات بعض قيادييه عن أمريكا معلومات سياحية وهشة ، يوم هالني أن أرى بلادي مقبلة على معركةٍ هائلة دون أن تكون قد إستعدت لها تماماً ، ولم يكن الإستعداد من وجهة نظري تكديساً للسلاح أو سلسلة بلاغات إستعراضية عن تصنيع أسلحة كانت ما تزال في طور التجريب . وهالني أيضاً أن يضع السياسيون حساباتهم على ما يُعرف بدهماء الشارع السياسي ، عندما إفترضوا أنّ مليوناً من المتظاهرين يخرجون الى شوارع عاصمةٍ عربية فقيرة سيغيرون بشعاراتهم ميزان القوى أو يُعيدون ترتيب وقائع حرب منتظرة .

حقاً كنتُ أتمنى أن يجادلني أولئك الذين غضبوا مني ومن آرائي عندما قلتُ إنّ إدارة الأزمة من جانب العراق كانت تتسم بالضعف والإرتباك في نواحيها العسكرية والدبلوماسية والإعلامية ، وإن إدارة الحرب في العراق إستسلمت لحالةٍ قَدَرية ، وتركت البلاد كلها تعيش هاجس إنتظار الضربة بكل ما ينتج عن هذه الحالة من إحباط وشلل وخضوع للحرب النفسية .. ثم لماذا إستاء الغاضبون من الحديث عن الدافع الإقتصادي ، الى جانب الدوافع الأخرى ، في قرار الثاني من آب ؟ .. وأذهب أبعد من ذلك لأتساءل هل كان خطيئة كبرى قولي بأنّ ثلاثة فقط الى جانب رئيس الجمهورية قد وضعوا خطة الدخول الى الكويت ، ولم يكن بينهم وزير الدفاع نفسه ولا أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو أعلى هيئة لإتخاذ القرار في العراق ؟ ..

عندما تكون المعلومة صحيحة لماذا ينبغي أن يُمنع ظهورها للناس ؟ ..

هل لأنّ آباء النصر كثيرون .. في حين يتبرأ من الفشل آباؤه الشرعيون ؟ ..

لقد كان ما يجري أشبه بإستسلام للفجيعة ، في سلسلة من الحركات الكارثية التي لا تحتمل التبرير ، فلماذا الخيار العسكري مع الكويت ؟ ولماذا العزوف عن الضربة الوقائية ؟ ولماذا تُرِك نصف مليون جندي في الصحراء ليلاقوا المجهول ؟ ولماذا التهديد بالسلاح الكيمياوي بعد إتخاذ قرار سري بعدم اللجوء اليه ؟ .. ولماذا لم يتم الإنسحاب الطوعي من الكويت ..؟ ولماذا إختيارالكارثة والاستسلام للضربة الاتية وكأنها قدر محتم ..؟ وهل كان أداء دور الضحية هو الخيار الوحيد في الإصطراع مع الذات والآخرين ؟ .. فهل يعقل أن يصبح إثارة هذه التساؤلات تفريطاً بحق عام .. ؟ .. أم أن إثارة الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها هوشرط لصيانة الحق الوطني العام والبحث عن جذور الكارثة وشخوصها ..؟ .

حقاً تمنيت لو ناقشني في آرائي والمعلومات التي عرضتها أولئك الذين يدّعون أنهم حريصون على المصالح العليا للبلاد .. إنّ الصدى الذي تركتهُ كتاباتي وأقوالي جعلتني أدرك كم تحتاج قضايا البلاد الى تأمل عميق وجدي يخلو من الغرض المسبق ، ومن الطمع في السلطة ، كما تخلو من التعمية وإخفاء المعلومات عن الجمهور الذي يمثل دور الضحية ويدفع الثمن باهظاً في قضايا لم يكن له أو لممثليه رأيٌ في نشوئها وتطورها .

وبعد ربع قرن من العمل المضني في السياسة والصحافة لا يستطيع أحد أن يتهمني بأنني طامع في سلطة أو صاحب غرض مسبق ، فقد كنتُ واحداً من الجيل الذي بنى العراق ودافع عنه في معاركه الفكرية والسياسية والإعلامية بحماسة تدلل على أحقية هذا الجيل في التصريح بآرائه والمجاهرة بالإستنتاجات التي يتوصل إليها مفكروه ومؤرخوه بالشجاعة نفسها والحماسة نفسها اللتين عُرِف بهما في الأيام الصعبة من تاريخ البلاد .. أما أنْ يُحرم هذا الجيل من هذا الحق ، ثم يُدان طلائعيوه عندما يجاهرون بآرائهم .. فهذا أمرٌ ليس مستغرباً

وحسب ولكنه غير محتمل ولا يمكن أن يُطاق ، ولذلك ترى أن طلائعي هذا الجيل يلوذون بأحد خيارين ، فإما أن يغتربوا وهم في الداخل عندما يلوذون بالصمت ، أو يغتربون في المنفى حتى لا يفقدوا حقهم في الإدلاء بشهاداتـــهم على التاريخ بقصد الدفاع عن المصالح العليا للبلاد .. وحسب .

❁ ❁ ❁

.. كانت هناك عقليتان مفترقتان ، حتى بدا أنّ عناصر إنسلاخهما عن بعضهما الآخر أعمق من عناصر إتصالهما ببعضهما ..

حقاً كان الإفتراق مقبلاً منذ البداية .. بين عقليتين ، إحداهما تبشر بالدولة كحق جماعي يضمن المشاركة الجماعية في تكوين إرثها وتقاليدها والمحافظة عليها ، ويتعامل مع متغيرات العصر بعقل مفتوح وإستعداد للإستجابة والتفاعل ويقاوم الإنغلاق وإختيار العزلة ، ويحث على تطوير قيم الحياة المدنية ونبذ العنف والقسوة والغبن والتفرقة ، وعقلية أخرى تستمد من قيم المجتمع الزراعي المتخلف مصدرها في تنشئة الوعي وتتبنى ما يترتــب عليه من سلوك يبيح القسوة وفرض السطوة ، وهي العقلية التي تسمح للذين تلبستهم عُقد الشعور بالنقص نحو الحواضر الكبيرة بالتسيّد على القيم الراقية من الحياة المدنية .. حتى كأنها تريد أن تعمم التخلف بدلاً من إنتشاله من الهاوية التي إستوطن فيها بعد أن دخلت الى الحواضر دخول الفيلة الى بيوت الخزف .

ولا يعني هذا الإفتراق بين العقليتين أن هناك من سيذهب الى القول إنّ الريف لا ينتج سياسة ، لكن هذا الريف وقيم مجتمعه الزراعي المتخلف سيصبح مؤهلاً لإنتاج أداء سياسي سليم عندما يندمج بالحياة المدنية ويقاوم عناصر تكوينه السلبي لصالح إقتفاء آثار العناصر الإيجابية في دولة المؤسسات والقانون .. حتى تتمدّن السياسة بدل ان تتريّف..

ولم يكن مفترضاً ، أن تحتمل العقلية الأولى بكل انفتاحها وجـود مـــن يعتقد أن أولئك الذين تعاملوا مع إفرازات عصر التكنولوجيا هم ليسوا سوى ( عبيدٍ للكومبيوتر و الإلكترون ) ، وكأن إمتلاك ناصية العلم بات أمراً معيباً .. فكيف إذا كان المتحدث هو الناطق باسم الدولة العراقية عند أُخريات القرن العشرين ..؟ وكيف سيكون الأمر إذا كان هذا الوصف قد صدر في آخر لحظة مصيرية قبل إندلاع حرب الخليج .. وهي الحدث الأكبر في تاريخ العراق والخليج .. ربما منذ وجود الخليقة فيهما ..

ويبقى السؤال الأكبر لماذا يتعين على صاحب الرأي أن يعاقب بالإلغاء والإزالة لمجرد أنه استخدم عقله في إتجاهٍ يعتقد أنه كان يخدم فيه شعبه ومصالحه العليا .. ؟ .. إن روح التخويف لا ينبغي أن تؤدي الى الإستسلام للحذر الجماعي ، لأن على النخبة هنا أن تؤدي بشجاعة دور التنوير والإستثارة وفتح مغاليق العقل والتعامل مع كل الخيارات .. بغض النظر عن درجة الرضى أو الرفض لدى أولئك الذين أنكروا حق الآخرين في الإجتهاد ..

❁ ❁ ❁

ولا بد من أن أنوه الى حاجزين امتنعت عن تخطيهما في هذا الكتاب : الأول : تجاهل التعرض للأشخاص من صـُناع السياسات . والثاني : تحاشي الخوض في السياسات الداخلية للدول .. ومرجع هذا الامتناع هو أنني وجدتُ من الأصح تاريخياً التعرض لقضايا كبرى تتضاءل إزاءها أدوار الأشخاص ، أياً كان تأثير هؤلاء الاشخاص ،لأن الشخصنة هنا تذوب لتصبح جزءً من تكوين صلد هو الحدث وهو الواقعة ثم هو القضية في النهاية . أما التعاطي مع السياسات الداخلية للدول فكان سيخرج هذا العرض من إهتمامه بالبيئات الإقليمية حيث تجسد السياسات الخارجية الوجه الآخر للسياسات الداخلية ، ولذلك لم أقترب منها إلا قدر ما تنتجه من متغير مؤثر في البيئة الإقليمية المحيطة بالحدث المحلي لهذه الدولة او تلك ، فالحرب في اليمن لم تكن قضية محلية ، ولجوء بعض الدول الى خيار المجتمع المدني لتحاشي آثار الحروب لم يكن مسألة محلية بحتة ، كما أن ضعف المشاركة في صنع القرار السياسي داخل دولة ما سيعكس آثاره في نوع السياسات الخارجية التي تـــهم الإقليم كله .. وهــكذا كانت المحاولة شديدة التحسس والحذر .. مع أن الحذر في غير ذلك لم يكن مما يمنعني من ضخ أكبر قدر من الحقائق التي غابت او غـــُيبت عن القارىء العربي .

في وضع العراق كانت هناك أربع إشكاليات أضعفت القدرة على إتخاذ القرار الصحيح في الوقت الصحيح وأنتجت في النهاية سلسلة الكوارث في التعامل مع الذات ، بمعنى طريقة تكوين العلاقات داخل البنية السياسية المحلية ، وفي طريقة التعامل مع الخارج ، بمعنى تحديد نوع الإتصال وشكله في البيئة الإقليمية والبيئة الدولية .. وهذه الإشكاليات هي :

أولاً : حلول الشرعية الثورية بديلاً عن الشرعية الدستورية ، فمنذ إنهيار الحكم الملكي سنة 1958 تعثرت محاولات إحلال شرعية دستورية بديلة عن الشرعية الملكية التي كانت سائدة ، وإنفتحت الفرص واسعة أمام شرعية الحركة ( أو الحركات ) الثورية قدر إستطاعتها الوصول الى الحكم وفرض نموذجها على المجتمع مع تغييب نماذج الآخرين وإراداتهم .

ثانياً : إضمحلال دور المدينة في العمل السياسي وهو أمرٌ أدى الى ضعف بنية السِلْم الإجتماعي ، إذْ طبعت قيم المجتمع الزراعي المتخلف العمل السياسي ونقلت التنافس السياسي والإجتماعي من صيغه السلمية الى صيغ الإحتراب وغلّبت إستخدام العنف ، وهو أمرٌ ترتب كظلٍ لحالة غياب الشرعية الدستورية وحلول شرعية القوة .

ثالثاً : سيادة المنطق التجريبي في ممارسة العمل السياسي ، وهو الأمر الذي يخل بثبات المنهج وما يفرزه من تراكم بمعنى أنّ اللجوء الى أساليب ما في العمل ثم التحول عنها فجأةً الى أساليب مناقضة لها في سلسلة متتالية من التجارب قد عرقل إستقرار المجتمع ومنع ثبات قيمه وقوانينه وأضعف روح العمل الجماعي ، كما غيّب دور المرجعية الدستورية في صياغة مناهج مستقرة لنمو المجتمع ، وقد طبق هذا المنطق على القضايا الصغيرة واليومية والإجرائية حتى بدا كأن في العراق أكبر عدد من القوانين والأنظمة والتعليمات تلغى بعضها البعض كما تتناقض وتتنازع في ظل غياب دستورٍ دائم للبلاد ، وكانت الكارثة بلا شك أن يُعتمد المنطق التجريبي نفسه في صياغة العلاقات مع العالم الخارجي وعند التعامل مع القضايا المصيرية الكبرى .

رابعاً : وقد أنتجت العوامل السابقة حالة الإستسلام لمنطق ( القوة ) في ممارسة العمل السياسي ، وهو وضع ناشيء عن تراكمات إجتماعية ونفسية غير سوية ولدت في عصر الإنقلابات العسكرية التي سمحت بأن يكون هناك دور سياسي للدبابة التي تزحف في فجر يوم ما للإستيلاء على الحكم ، كما ترعرعت في الإتجاه نفسه العقلية الإنقلابية للأحزاب الثورية التي تبيح إستخدام القوة لإزاحة الخصوم وصولاً الى السلطة فترتب تلقائياً دوراً للقوة في إخضاع إرادات الآخرين وتنفي حق الرأي الآخر وتستسهل القوة وسيلة لبلوغ الأهداف في أقصر وقت إفتراضي بدلاً من إستخدام أساليب العمل السياسي الأخرى التي يفترض أنها أصعب وأكثر تعقيداً وتمتد على مساحات أوسع من الزمن .

وكان طبيعياً أن يتحول الإستسلام للقوة وإستسهال إستخدام العنف والقسوة داخل البلاد الى وسيلة في ممارسة العمل السياسي الخارجي ، أي أنّ القاعدة التي إستند إليها العمل السياسي المحلي قد أصبحت قاعدة في ممارسة السياسة الخارجية ، وساعد على تجسيد هذه الحالة الإيهام الذي أوحت به وسائل الإعلام في الولايات المتحدة وأوربا حول تمتع العراق بخامس قوة عسكرية في العالم ، وهي مسألة مبالغ فيها الى حد كبير وقد أُستخدمت لهدفين : الأول إستدراج العراق الى تشغيل ذراعه العسكري ، والثاني تبرير سحقه عسكرياً بإعتباره قوة عسكرية خطيرة ، في حين أن إعادة تقييم القدرة العسكرية التي كانت لدى العراق عشية حرب الخليج إستناداً الى المعلومات الصحيحة ، وبمنطق المقارنة مع القدرات العسكرية لدول أخرى في العالم ، وخارج نطاق المقارنة مع الدول الصغيرة في الإقليم ، ستقود الى تفسير الطريقة التي أُستخدمت فيها مقولة ( الجيش الخامس ) لتبرير ظهور مشاهد الكارثة التي توالت في إيقاع منظم لتهديم العراق وتهشيم قدراته المادية .

وفي هذه الحالة أيضاً ، عندما جرى تبني فكرة أن القدرات العسكرية العراقية هي الأقوى بعد أربع دول في العالم ( يفترض انها كانت آنذاك الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي والصين وفرنسا ) ، كان أمام العراق خياران : الأول هو اللجوء الى إستخدام القوة لممارسة عمل سياسي يخلو من الفعل العسكري المباشر عبر التلويح بالقوة وتجسيدها سياسياً ودبلوماسياً للحصول على وضع أفضل في العلاقات الخارجية دون الإنجرار الى الأعمال العسكرية المباشرة ، خاصة وأن كثيراً من دول العالم الثالث كانت تنظر بإعجاب وتهيّب نحو العراق حتى كان من الممكن لبغداد أن تُنصّب حكومة في دولة قصية مثل جزر المالديف عبر إنقلاب عسكري وسياسي ودون إستخدام مباشر للقوة ، كما كان بإمكانها أن تمكّن حزب الشعب الباكستاني الذي كان متحالفاً مع العراق وهو في المعارضة من الوصول الى السلطة في إسلام أباد دون إستخدام للذراع العسكري ، وبالقوة نفسها كان بإمكان العراق أن يوقف زحفاً سنغالياً على موريتانيا سنة 1989 دون الإضطرار الى إرسال جيوش ومحاربين ، كما كان بالإمكان التوسط لإيقاف حرب أهلية في تشاد عبر العمل السياسي غير المسلح .. عدا عن أمثلة كثيرة أخرى ، كان من اليسر فيها بمكان إستخدام الفكرة الشائعة عن قوة العراق لفرض وضع سياسي أو تغييره أو التأثير في إتجاهاته .

غير أن إستخدام القوة فعلياً وعلى نطاق واسع كان سيؤدي الى ثلاثة نتائج .. الأولى : إظهار عيوبها التكتيكية والتعبوية ، والثانية : إنهاء حالة الرهبة والتخوف من قوة لم يكن هناك تقدير نهائي لطاقاتها قبل إستخدامها فعلياً وعلى نطاق شامل ، والثالثة : تحفيز الآخرين على تنشيط قدراتـهم العسكرية لخوض مواجهة صارت أمراً واقعاً ولم تعد أمراً محتملاً .

وليس العراق وحده من عانى من مثل هذه الحالة ، إذْ أن الولايات المتحدة وهي أقوى دولة في العالم بدت هشّة في كثير من المرات التي إستخدمت فيها القوة العسكرية كما الحال في الخليج نفسه ثم في الصومال . وظهرت عيوب القوة عندما خرجت الى العلن في حالات كان بالإمكان التلويح بها دون إستخدامها .

وعلى هـــذا الأساس فإنّ الفكرة القائلة بأن لكل قوة ما يقابلها أو يجهضها ، تبدو سليمة وصحيحة ، وهي تنهي وهم إعتبار القوة الوسيلة الفضلى لممارسة السياسة محلياً وخارجياً ، وقد حان الوقت لتأبين دور الدبابة في قيادة العمل السياسي داخل البلاد وخارجها بعد أن جرى التعامل مع هذا الدور حوالي نصف قرن دامٍ من تاريخ العراق .. وسواه من دول العالم .

قد ينتهي هذا الكتاب الى إظهار عدم أهلية صانعي السياسة في العراق على إدارة سياسة خارجية قادرة على تأمين المصالح العليا للبلاد ، وسيكون بلوغ هذا الاستنتاج خلاصة المشاهدة المريرة للأداء السياسي الذي استنبط من السياسة الداخلية قواعده وأساليبه ، فنقل ما إعتاد اللجوء اليه من طرائق العنف والقسوة والإرغام وإلغاء أدوار الآخرين وتغييب المشاركة في صنع القرار ليُصبح ذلك كله ميزات الأداء الخارجي الذي كلّف العراق حربين باهظتي الكلفة ، وعزلةً سياسيةً وعملية ، وخراباً في العلاقات مع جميع الجيران .. ثم لم تتمخض الهزائم بعد ذلك عن دروس تصـــلح مخرجاً الــى فضاء رحب للتطهر من عيوب ذلك الأداء السياسي .. إذْ بات الخراب يُنجب توائمه وذيوله ليتكرس بأقسى ما يضخ مـــن نتائج كان دافـــع الثمن فيها الجمهور نفسه الذي ظل مغلوباً على أمره ..

ثمة سؤال آخر : مَن الذي خدع مَن ؟ .. مَن الذي أدخل الذعر الى عقول السياسيين العراقيين وأفهمهم أنهم هدف لضربة حتم ولا بد من القيام بعملية وقائية لإجهاضها .. ؟ .. وهل كانت الوقاية من الضربة فتح معركة مع الولايات المتحدة على ساحة الكويت ؟ وما الرسائل والإيحاءات التي نقلها سياسي عربي الى بغداد عشية الأزمة وكانت تدور حول ضربة آتية .. ؟ .. ومن هي الجهة الدولية التي مررت إليه تلك المعلومات واستخدمته جسراً للوصول الى بغداد ؟ .

بل لنقل : مَن الذي أدرك الشعور العميق بالخوف لدى صنُاع السياسة العراقية ، وهـو شعور يعكس إحساساً مركباً بالضــعف والعزلة ، فاستثمر هذا الشعور وألقى إليه بما يحفزه على الحركة في الاتجاه الخطأ وفي التوقيت الخطأ .. ؟

من كان معك .. ومن كان ضدك .. ؟ .. الذين إستحلوا مشاهدة مباراة الرعب ليتلذذوا بتشظي لحوم الضحايا فقالوا لك إذهب الى أتون الحرب وسنكون معك ، غير انهم في اللحظة التي تلفتت حواليك تبحث عنهم لم تر منهم أحداً .. بل قد يكون بعضهم سبقك الى خصومك واتفق معهم

على أن دور التهييج والتحريض ينتهي بإطلاق الرصاصة الأولى .. من كان معك .. الجمهور الذي خرج الى عواصم دول عــربية او تجمع في مقاهيها ليعرب عن المساندة والتأييد ، لا حــباً بك ، ولا إعجاباً برسـالتك ، ولكن نكاية بحكام آخرين وتشبثاً بوجود من يقض مهاجع الآخرين ويفسد راحـــتهم .. مما لم يستطع ذلك الجمهور أن يفعله .. وهو في تلك الحالة لم يكن غير حالة عاطفية مركبة ومعقدة لم تكد ان تلاشت لتتحول النشوة الى إحباط والأمل الى يأس ..

إنّ الذين صفقوا لك لم يكونوا يهللون لأحد بل كانوا يضربون راحةً براحة من شدة ما تلبسهم من الخوف والفزع ، وإنّ الذين ضحكوا في وجهك لم يعنيهم إظهار المسرة ، لأن الضحك كان أقسى ما بلغوه من وسيلة للإفصاح عن بكائهم .. فكم كنت تفهم الناس حواليك على نحو خطأ ..؟

ثم مَن الذي أضاع الآخر .. ؟ الجمهور الذي يبحث عن أية حركة تهشم حالة السكون المملة منذ عشرات السنين .. أم صانعو المعارك الكبرى الذين أيقظوا مشاعر ساتبة دون أن يتمكنوا من إحيائها بعد إخراجها من ذلك السبات ، فمات بعضها وتهشم بعضها الآخر .. ؟

كان هناك إيهامٌ للذات وإيهامٌ للآخرين ، فقد تحولت الإفتراضات الى حقائق في أذهان الحالمين بصناعة ( تاريخ جديد ) لم يفُض ِ الى غير عقاب جماعي لشعب العراق ، فتح شهية كل المتربصين لينتقموا منه ومن تاريخه ومستقبله .. فهل كان ذلك ما تعد به المعارك الكبرى التي ولدت في لحظة العجز عن خوف المعارك الصغيرة التي تستجيب الى الحاجات الإنسانية الأساسية في أمنه وغذائه وصحته وثقافته وحفظ كرامته ووحدة أسرته .. ؟ .

سيأتي وقت نجيب فيه عن هذه التساؤلات ..

أفلا يكفي هذا ، إذن ، لأن نبدأ بكتابة جديدة لتاريخ يهرب من بين أصابعنا ، مثل مياه غير نقية تُسرع في التلاشي .. وربما في التخفي حتى تعاود الظهور في وقت آخر .. ؟ ..

من هنا .. كان وضع هذا الكتاب جزءً من المشروع التاريخي الكبير للإجابة عن السؤال المحيّر : ماذا حصل .. ولماذا حصل .. ؟ وهو سؤال طُرح بعد حرب الخليج في احدى الصحف العراقية الرسمية وأُجيب عنه بطريقة مشينة عندما حمل الرد عليه أول شتيمة علنية ضد الجمهور الذي لم يكن غير ضحية فـــي مقدمات الخراب ونتائجه ..؟ .. لقد ذهب ذلك الرأي الحكومي الى ردّ كل المشكلات الى ما وصفه بأنه عيوبٌ في القيم المعنوية لدى الشعب العراقي والى ما عدّه تراجعاً في مثله العلُيا .

في هذا الكتاب ، تطلع البداية من النهاية ، من حيثما إنتهت حرب الخليج ، لأن النتائج الـــتي أدت الى الإنحناء أمام أذل شروط أذعان في التاريخ كانت مـــؤخرةً لتراكم ٍمــن السياسات القاصرة التي لم تصلح لإدارة العراق ..

❃ ❃ ❃

.. وكانت هناك إشكالية أخرى إستحوذت على العقل الجماعي في نصف قرن من تاريخ النهضة العربية وهي تتعلق بالأفكار ، صناعتها ، وصياغتها ، وترويجها ، ثم ما يترتب على ذلك من درجة إتصال بها ودفاع عنها الى حد تقديسها وتبرير قمع نقائضها ، وما يرافق ذلك من إستخدامها كأغطية لممارسة عمل سياسي يبتعد عنها تلقائياً ، وقد تصبح تطبيقاته اليومية نقيضاً لما ينادي به من أفكار .

إبتداع الفكرة هو أدنى مراحل بناء التاريخ ، لأن الأهم من ذلك هو حمل هذه الفكرة الى ميادين التطبيق وإيجاد آليات لتحويلها الى مفردات في حياة الشعوب ، وتبتدىء الأفكار دائماً بصيغ أولية ، وقد تكون بدائية في بساطتها ، لذلك وجدنا أن الأفكار التي تحلّق حولها الملايين في قرن النهضة كانت في الأساس أفكاراً بسيطة حركت الجموع وجعلتها تتشبث بها كـملاذ من الخوف والحيرة والجوع والحاجة والضعف والشك ، لكنها لم تصبح مشاريع عظيمة إلا في التطبيق ، ولن تتبرأ الأفكار من بدائية نشوئها إلا بتخليصها من آثام السياسة والسياسيين ، لتبقى محافظة على مزيج من المثالية والواقعية ومن حلم الفكرة ونُبل الأداء ، غير أن تجربة ممارسة السياسة إستناداً الى تلك الأفكار أظهرت أن وجود فكرة مثالية لا يبرر آثام التطبيق ، وليس لفكرةٍ مهما إنطوت عليه من مثالية ونبل أن تصمد في عقول الجموع عندما تتعرض الأساسيات من الحقوق والحريات والكرامات للثلم والإستباحة ، ولذلك فأن أحد أسباب إنحسار المشروع القومي ( الذي نادى منذ مطلع القرن العشرين بإقامة دولة عربية واحدة ) كان في أخطاء ممارسة العمل لتطبيق المشروع نفسه تحت ألوية الأنظمة التي تبنت عناوين القومية والثورية والتحرر لكنها زرعت الخوف بدل إزالته وأحلّت الشك بدل اليقين وعمقّت الحيرة وزادت الحاجة ونشرت الجوع والقسوة والظلم .. وهو الأمر الذي أدى الى إتساع دعوات تقنين الأفكار والشعارات والبحث عن شعار ممكن حتى لا يؤدي تبني شعار كبير الى هزيمة دعاته والمبشرين به في لحظة العجز عن بلوغه وتحقيقه ..

❀ ❀ ❀

وهكذا بدت الحاجة الى عقد إجتماعي جديد أكبر من الحاجة الى تعاقد جديد مع العالم .. إذْ ما جدوى البحث عن سبل مصالحة مع هذا العالم مالم تكن هناك مصالحة مع الذات في العراق نفسه ؟

فقد تصدّع النظام الإجتماعي وإرتبك تسلسل أولوياته القيمية وبلغ العنف ذروته وإنتشر الفقر والبطالة وغابت المساواة وحصلت أكبر هجرة جماعية في تاريخ البلاد بلغت أكثر من ثلاثة ملايين مرتحل صاروا يهيمون في العالم في خلال أربع سنوات فقط ، وسيتعين معالجة إنهيار قيمي ليس من خصائص الشخصية العراقية ولا يتصل بصفائها الذي كانت تعبر عنه في مراحل إنسجامها السلمي مع نفسها ، إذْ ليس من المعقول غض النظر عن نزعة في التدمير وإستسهال اللجوء الى القسوة والعنف وتبرير السرقة والقيام بإبادة جماعية للأفراد أو إبادة نوعية للنخبة الإجتماعية والفكرية والعلمية أو تبرير نهب ممتلكات الآخرين ، كما ليس من الإنصاف تجاهل غياب التسلسل الإجتماعي المبني على أحقية الكفاءة في أداء الخدمة العامة وتمييز السلوك السوي عن سواه من سلوك منتفع أو مستغل يقوم على إستلاب حقوق الآخرين وإلغاء أدوارهم ، فقد جـرى تدمـير ، يبدو وكأنه منظم ، لتسلسل إجتـماعي ونظام قيـمي سـائد دون أن يحـل بديلاً عنه نظام يحظى بالرضى والتراضي ..

ويوم صار العراقيون يئنون من وطأة حصار خارجي قاسٍ وظالم توقعوا أن تنفرج معالم حياتهم في الداخل ويتمتعوا بقدر أوفر من الحريات ، فإذا بهم يُطحنون بين فكي الخارج والداخل ..

ومن الوهم أن تـرُد كل مشكلات العراق الى ما حدث في الثاني من آب 1990 ، لأن جوهر الكارثة هو في جذورها التي تجد تعبيراتها في إنهيار نظام القيم وغياب الحريات وتفتيت الكم والنوع . وبهذا المنطق لا تـقُاس الأحداث ونتائجها بمعيار سياسي مجدب لا يتجاوز محاولات لوصف العلاقة بين نظام سياسي معين وبيئة إقليمية ، إذْ أننا نحشر أنفسنا عندئذٍ في التعامل مع جزء من النتائج وسنفرط بمصالح عليا وبأحقية العراقيين في الحصول على فرصة بناء نموذج إجتماعي – سياسي – أخلاقي جديد لن يتخذ من منهج تصدير أزمته الداخلية الى

الخارج أسلوباً في القفز على مسعى الحل الجدي للمشكلات و إذا كان المطلوب إقليمياً ودولياً ردم رحم أزمات كبرى جديدة ، فإن عدم معالجة معضلة الذات سيؤدي الى أزمات أخرى تجد ساحات خارجية تفرغ فيها شحنات إضطرابها وخوفها وبحثها العابث عن حل سريع لمشكلات لا يحلها في النهاية إلا عقد إجتماعي جديد يستعيد فيه العراق لحمته ويعيد تشكيل علاقاته وذاته وعلاقاته السلمية الداخلية التي تتيح عندئذٍ بناء علاقات سلمية خارجية ..

من هذه الزاوية في الرؤيا ، يطل البناةُ والمنظرون والشهود على التاريخ الذين إغتربوا تحت مظلة الخوف داخل الوطن .. أو خارجه ..

وهكذا أيضاً ، سيكون متاحاً تخليص الجمهور العراقي من التبعية لإضطراب المواقف السياسية نحو المحيط الإقليمي ، عندما يكتشف هذا الجمهور أن دوره وحقه هو في توصيف شكل علاقته مع العالم دون اللهاث وراء إيقاع سياسي محلي قَلَق كان يحيل الأصدقاء الى أعداء بين ليلة وضحاها ، ويغير أوصاف الآخرين من أقصى الألفة الى عتمات الوحشة . وعندئذٍ ، سيدُرك العراقيون أن الدول التي خسرها السياسيون في مراحل سابقة هي الأقرب إليهم بالمصالح من جهة ، والإنتماء بالنسَب والدين والعِرق من جهة اخرى ، فتسقط ، عندئذٍ ، دعوات إثارة العداوات من حيثما صدرت ، ومتى ما صدرت .. الآن .. وفي أي مستقبل قريب أو بعيد ..

وفي هذا الكتاب ، نجد أن الذين عجزوا عن صياغة عقد إجتماعي محلي عجزوا أيضاً عن صياغة تعاقد مع العالم حتى من حيث القدرة على بناء أداء سياسي سليم بعد الأزمة والحرب حيث كان مفترضاً أن تنتج تلك التجربة طاقة قادرة على تجاوزها والإعتراف بالخطأ .. على الأقل من أجل إيقاف نزيف ملايين العراقيين تحت وطأة الحصار الخارجي وشروط الإذعان بثقلها المعنوي والمادي ..

وليس لنا إلا الإقرار بأن المحيط الإقليمي للعراق هو حاضنته ، لا سيما مع الشركاء التاريخيين في السعودية ، أو في مصر ، أو في الأردن ، أو في سوريا وسواهم ، وليس لصيحات العداء والثأر الشخصي أن تمس علاقات في النسب والمصلحة هي أرسخ من ضجيج مُنظّري الفشل ومبرريه .. فالجميع في حاجة للمشاركة في حاضنة كبرى هي بمثابة المنزل الأوربي للأوربيين .. فلماذا يبني الآخرون منازلهم .. في حين نحطمها نحن بأيدينا .. قبل أن ندع أيدي المنافسين والطامعين تفعل فعلها في تهديم ما نعجز عن إصابته .. ولماذا يرغم الجمهور على الإعتقاد بأنه من المستحيل إنقاذ ما تبقى وكأن الإستسلام الى العزلة هو الخيار الوحيد .. ؟

وسترى أنني لست من المتشائمين ، مهما بلغ وصف الوقائع من قسوة ومصارحة ، لأن المرارة المترشحة عن هذا الوصف قد تصبح المعين على وضع خطوة كبيرة الى الأمام عندما يعرف الناس ماذا حدث .. وماذا يحدث .. فيكون بإمكانهم عندئذٍ أن يقرروا ما ينبغي أن يحدث ..

❁ ❁ ❁

لقد بذلتُ محاولة معقدة في كتابي السابق ، ربما كانت الأولى في التاريخ السياسي للعراق ، للبرهنة على وجود دولة ذات هياكل وتقاليد ومؤسسات بعد سبعين سنة من الإستقلال ، عندما أخرجتُ العرض السياسي والتاريخي من مناخ الصراع اللامنتهي على السلطة إلى عرض لمكانة العراق في بيئته الإقليمية ، والآلية التي تصرفت بها مؤسساته نحو المتغيرات الإقليمية والدولية دون أن يكون واجب الشاهد على التاريخ تبرير أخطاء أحد أو تحسين صورة أدائه ، وربما لذلك إستفز كتابٌ من ذلك الطراز أولئك الذين إنضووا إلى مؤسسات الدولة لكنهم ظلوا يحتفظون بتركيبتهم البدائية والغريزية التي تُغلّب العامل الفردي على دور المؤسسات ، وتنظر إلى الأداء العام كفرض شخصي .. ولذلك فأنّ التناقض بين الدولة كتراكم ناشىء عن ثلاثة أرباع القرن من الخبرة والجهد ، ( وبين الحلول الشخصي ) كبديل للمؤسسات وتقاليدها هو الأمر الذي ظهر جلياً في الإصطدام مع نموذج فكري يعرض الدولة كحق جماعي وكملك جماعي وكنتيجة للجهد الجماعي .. ثم ليبرهن على وجودها دون الإكتراث بنقائضها وما يحيط بها من طحالب وطفيليات ... وكان ذلك سيقود الى تأصيل مفهوم الوطنية كمعنى شامل لا يرتبط بظرف أو شخص أو حالة واحدة ، ولا يحتاج بالتالي الى من يعطيه التزكية وصكوك البراءة ..

فالتشبث بوجود الدولة هو عمل وقائي لمقاومة التشرذم الإجتماعي وتكريس فكرة الوحدة الدستورية للأرض والشعب .. بل والتشبث

أيضاً بوجــود كيان دستـــوري مـــؤهل ومقـــبول للإتصال بالكيانات الدستورية الأخرى في الإقليم ..

❃ ❃ ❃

وقـد يستنتج هذا الكتاب الجديد – عن رماد حروب إنتهت ولم تنته – إستحالة الحصول على حلول تاريخية عبر الحروب والإتكاء على منطق القوة ، سواء استخدمت من دولة صغيرة أم كبيرة ، ولذلك بات على هذا الكتاب أن يحدد موقفه من الحـروب المتوالدة التي تورث الفواجع واحدة تلو أخرى ..

ليس هناك حرب بلا أم .. فمن يستطيع إذن إيقاف هذا النسل المتوالد غير إحالة الحرب إلى أشكال أخرى من التنازع المهذب وغير المسلح .. كأنّ تُنتزع الأنياب وتُقتلع المخالب عند كل مرة تولد فيها حرب محتملة .. إذْ سيظل هذا النسل يتوالد الأنياب والمخالب ، وتظل الإرادة السياسية مسؤولة عـــن إنتزاعها ، فالصراع باق .. ولن نرى حرباً جديدة .. فكل حرب آتية هي إستمرار لحروب قديمة ...

لكل حرب أم .. فاقتلعوا أرحام هذه الأمهات ..

ثم ليس هناك حـرب مجـيدة ولا حــرب مقدسة ، الحروب هي حياة مؤجلة .. جزءٌ ميتٌ مقتطعٌ من تاريخ الشعوب ، فكل الذين ذهبوا الى الحروب أو قبلوا الإستدعاء إليها ولم يتحاشوها وكانوا يأملون العثور على حلول كُلّية إجمالية لمشاكل السيادة والإقتصاد عادوا منها مثقلين بمزيدٍ من المشاكل والأعباء مع أن الفرصة كانت موجودة دائماً لبلوغ حلولٍ تدريجية للمـشكلات السيادية والإقتصادية لا بل المعنوية والإعتبارية أيضاً ، ومن العبث الإعتقاد أنّ هناك حروباً تُشن ثأراً لكرامة شخصية .. بل من السذاجة القول بأن زواج هيلين كان سبباً في حروب طروادة وأن إغتيال ولي عهد النمسا في سرايیڤو هو الذي أشعل الحرب العالمية الأولى وأن إسقاط الطائرة التي كانت تقل رئيس راوندا هو السبب الحقيقي لوقوع مذبحة في تلك البلاد أدت الى مقتل نصف مليون إنسان هم خُمس السكان في مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر .. ان كل تلك الأسباب كانت شرارة إلتهبت جوار براكين تراكمت فيها أسباب عميقة للحرب والعنف وكانت تنتظر أي سبب تافه أو كبير لكي تنفجر .

إنّ كل الذين ذهبوا الى الحروب يبحثون عن حل سريع لمشاكل لم يستطيعوا إيجاد حلول سليمة لها بإدارة كُفء وعمل متراكم قد فشلوا في النهاية وحمّلوا شعوبهـم إستـحقاقات سيـدفعها أكثر من جيل ، ولعل أعظم ما إستمعت إليه من مقاتلين خاضوا في حروب العبث على ضفاف الخليج : أننا نخجل من القول بأننا قد إنتصرنا في هذه الحروب .. فعلى مَنْ إنتصرنا ؟ وماذا غنمنا ؟ .. أغنمنا بعضاً مما تبقى من ممتلكاتنا وممتلكاتهم قبل الحروب .. ؟ .. لذلك ليس لنا غير أن ندفن ضحايانا ونجمع ما تبقى من أشلائنا ونداوي جراحاتنا .. فقد كنا في إجازة من الحياة .

❃ ❃ ❃

في الجانب الآخر الذي يعالجه الكتاب لم يكن ممكناً أن نرى مشهداً بلا ظلال ..

إذْ ليس هناك أصلاً مشهدٌ من غير ظلال ..

فالظلال تجعل موقع أي مشهد معروفاً بمكانه على خارطة الحدث في عالم متصل مع بعضه ولا يمكن قطع الوقائع فيه عن جذورها في الزمان والمكان ، ولعل ذلك هو السبب الذي أشعرني بالحاجة لعرض أحداثٍ وقعـت أو مازالت تجـري فـي الظهير البعـيد للـحدث الخليجي والعربي ، ولذلك أيضاً إبتعدتُ بالقارىء قليلاً لأريه من كرسيه الملقى في المشرق العربي أو الخليج مشاهد مستدعاة من أطراف حرب الخليج وحافاتها البعـــيدة حيث أنّ رماد الحروب في هذه الضفة أو تلك لا يجد فضاءً يتناثر في أرجائه أقرب من فضاء الخليج ومياهه وحافات سواحله ، وللسبب عينه كانت ثمة حاجة للإطلال من شرفةٍ في جنوب أوربا على مقتربات القضايا العربية ولذلك أُضيفت الى هذا الكتاب

مراجعة لملفات عربية كانت تجري في روما وباريس ولندن خاصةً عندما كان الأمر يتعلق بالعراق أولاً وعملية السلام بين العرب وإسرائيل ثانياً .

لا بل كانت هناك حاجة للبحث عن ظلال المشهد في التاريخ القريب والبعيد لبلوغ جذور ما حدث .. ومصادر تكوين العقل السائد اليوم ، وقد يحتاج الأمر أن نعود الى تاريخ سقيفة بني ساعدة قبل أن نفسر ظاهرة سياسية رافقت حرب الخليج أو تلتها ، كما سيحتاج الأمر الى دراسة عقدة البحر في الشخصية العراقية منذ ظهورها في الشخصية الاسطورية للسندباد الذي كان ينطلق من البصرة ليمخر في بحار العالم ..؟.. وكيف نستطيع أن نفهم أسباب وقوع حرب في اليمن دون تلمس تاريخ الدم في قعر الجزيرة العربية ..؟

وكانت هناك معضلة أخرى في الكتاب تتصل بقضايا الخلاف على الحدود ...

إذْ أنّ الحكام العرب باتوا يرون في ثغرات الحدود مع الجيران منافذ تصل الى قصور حكمهم ، لذلك لم أجد موضوعاً يتحسس منه السياسيون العرب مثل مسائل الحدود ، اللهم إلا مسألة الحفاظ على كراسي الحكم نفسها ، فمعظم الأطراف لا تريد الخوض في هذه المسائل ، وتنكر رأي الآخرين وصدقية وثائقهم ومعلوماتهم ، ويرى كل طرف أن معلوماته وحججه هي التي تستحق أن يعوّل عليها ، حتى بدا لي أن وضع فصل في هذا الكتاب عن إشكاليات الحدود كان خوضاً في بحر المحرمات ، ولكن هل كان ينبغي أن يتراجع الشاهد على زمانه عن قول ما عرفه او إطلع عليه ، على شحة ما وفره المنافسون والمتنافسون في هذه الإشكالات التي قد تقرر في النهاية مصائر الحكام والدول معاً ما دام التعامل معها يجري على قاعدة رفض حجة المقابل والعمل على إسقاطها حتى النهاية ..؟

حقاً كان المشهد في حاجة إلى ظلال في الزمان والمكان ، وكنتُ أتمنى لو تمكنتُ من الإطلال على هذا المشهد عبر كل الزوايا ومن المقتربات الوثيقة والبعيدة .. وحتى ندرك ما يجري هنا كان لا بد من معرفة بعض ما جرى و يجري هناك.. ، ولا زلت أذكر أنّ الملك الكمبودي نوردوم سيهانوك كان يقول لي إنه طالما تلقح عن بعد بمجريات أحداث الخليج والشرق الأوسط وأنه تعلم من عبدالناصر شعارات مرحلة التحرر الوطني ، ثم كان أول المنقلبين عليها عندما إكتشف ما كان العرب قد إكتشفوه أيضاً من أنّ الشعارات وحدها لا تطعم الشعوب خبزاً وحرية .. وأنّ فقر بلاده مشكلة كبيرة لكن إكتشاف النفط فيها هو مشكلة أكبر .

أما جوليو اندريوتي رئيس وزراء إيطاليا الأسبق وعرّاب سياساتها في نصف قرن فكان فخوراً بأن يعلن لي أنّ أهم ملفات العرب .. في العراق وليبيا وفلسطين كانت موجودة دائماً فوق طاولته ، لأنّ روما هي بوابة العرب على أوربا ، كما هي بوابة أوربا على العرب ..

في حين كان الرئيس الأفغاني برهان الدين رباني يبحث عن الصلة بين حروب العرب وحروب بلاده.. وقد سألني مرة كيف تمكن العرب من خوض كل هذه الحروب ومازالت مدنهم وقراهم باقية وحيّة ، وكان يتحدث عن 700 مدينة وقرية أفغانية دمرتها الحرب خلال الوجود السوفيتي ، لكنه لم يذكر كم مدينة وقرية دمرت خلال الحرب الأهلية بعد إنتهاء الإحتلال ، ثم صار يشتكي من أنّ بلاده هي مسرحٌ لتنافس إقليمي أدخل إليها دافعية المذهبية والطائفية لإذكاء نار الحرب وأضاف أنّ الروس يوم كانوا يريدون الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج إختاروا إختراق أفغانستان ، وأنّ الحرب يوم توقفت وإحتاج الأفغان إلى أموال العرب لإعادة بناء بلادهم وجدوا أنّ للعرب حروبهم هم أيضاً وأنّ كل الذي يُثير الحكومات العربية هو موضوع الأفغان العرب ..

وفي الجهة الأخرى من المشهد عند القرن الإفريقي اتيح لي أنْ أسأل الرئيس الأرتيري أسايس أفورقي ( الذي التقيته سنة 1995 ) إنْ كان يتوقع حروباً أخرى بعد قطع العلاقات بين بلاده والسودان وتوتر العلاقات الأثيوبية السودانية ، فقال : ان الجُرع التي أخذناها من الحروب كانت تكفي لكي تأخذ دورة الحروب مداها ، سواء في بلادناك أيام الحرب من أجل الاستقلال أو في الصومال وراوندا حيث ما تزال روائح الموت تزكمنا ، ولذلك فإنني أستبعد أن تقع حروب أخرى في هذا الجزء من العالم لعقد آخر من الزمن على الأقل ) .

كانت هناك إذن جُرع أكبر من طاقة الشعوب على التحمل .. في افريقيا و الخليج و اليمن ..لكن التساؤل الذي سيظل يثير الرعب : أيُ المناطق هي تلك التي ستستوعب الجُرع الآتية من الحروب وويلاتها .. ؟ ..

لقد كان بالإمكان إستشعار تداخل الظلال في المشهد .. في كل مرة إستدار الراوي من إحدى الجهات الأربع لمشاهدة ما يجري في الخليج والمشرق العربي وشمال إفريقيا . . حيث تشابهت النتائج بعد أن إختلفت بدايات الوقائع ، فقد تخلت ليبيا ،مثلا ،ً عن شريط حدودي من ترابها الوطني بطريقة متشابهة لتخلي العراق عن شريط مائي من اقليمه الوطني مع أنهما خاضا حربين ضاريتين من أجل شريط التراب .. وشريط الماء ..

وحينما يشعر القارىء أنّ الكتاب قد إبتعد به قليلاً أو كثيراً سيدُرك أنّ رحـلته حول المحيط كانت جزءً من عملية فتح القلب والتطلع في دواخله .

إنّ إطلالة على وقائع ما بعد حربين كبيرتين في الخليج ، وعودة العالم إلى الحروب المحلية في يوغسلافيا السابقة وأفـغانستان واليـمن والصـومال وراوندا وجورجيا وبوروندي ، ترُينا أنّ العالم يعود إلى أوضاع مشابهة لأحواله عند مطلع القرن العشرين التي انتهت الى الحـرب العالمـية الأولى ، ولم تهدأ تنازعاته فيها إلا بعد عقد سلسلة إتفاقات في مؤتمر سان ريمو ومؤتمر الصلح في فرساي .. وهو الأمر الذي يفسر العمل الحثيث لعقد سلسلة إتفاقات سياسية وإقتصادية من نمط إتفاقية التعرفة الجمركية الدولية ( الجات ) وإتفاقية ( نافتا ) في أمريكا اللاتينية وإتفاقية ( إيباك ) في جنوب شرق آسيا ومؤتمر القمة الإقتصادية في الدار البيضاء ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة .. إذْ يعاد توزيع الأدوار والحصص وجمع غنائم كل حروب العالم وصراعاته في قرن كامل ..

❁ ❁ ❁

أما على ضفاف الزمان والمكان في حربي الخليج .. فقد نشأ فراغ فكـري هائل ، حين غابت روح الإبتـكار والفـتح ، وتــسيّدت نزعـات الإنطواء والعزلة والشعور بالخيبة والمرارة ..وأتسع المشهد لشعوب تلعق جراحاتها .. وتحول المثقفون الى هجائين ومدّاحين ومولولين وندابين ، بحيث بدا أنّ الوعاء الفارغ لن يمتلئ الا بعد أن يدرك العقل العربي ما جرى .. ولماذا جرى .. وحتى يتحقق ذلك ، صار لا بد من وجود رواة ومؤرخين وشهود عيان لا يرتجفون عند النطق بآرائهم والشهادة على زمنهم .. ولا يحتاج الأمر الى أفراد يجري إنتقاؤهم لهذا الواجب الأخلاقي والمعنوي ، بل يحتاج الى حالة عامة يشعر فيها الجميع بالحاجة للتأمل والبوح بالأفكار والرؤى .. والمعلومات أيضاً ..

وفي بلد كالعراق مثلاً ، غابت عنه تقاليد البوح بالرأي ، وإنقسمت شخصية الفرد فيه الى وجوه عدة في الظاهر والباطن ، بسبب الخوف والوجل ، فإن إعادة تأسيس تقاليد عرض الأفكار والآراء الضد سيحتاج الى جهد خلاّق يتناسـب مع عظمة دولة بحجم العراق وعراقته وحيوية شعبه .. لتنهار المقولة التي يتحصن خلفها مستلبو الحريات : بأن الشعب غير مؤهل لممارسة حقوقه في القول والإختيار والتصرف والمشاركة في الحياة السياسية .. فليس هناك من شعب يستحق هذه الحقوق مثل شعب العراق الذي يستطيع بإمتلاكها أن يصبح مركز إشعاع ويمارس دوره الإقليمي المؤثر في غياب الحروب والعداوات والنزيف الدائم .. وفي بلد سنّ فيه ( حمورابي ) أول شرائع الكون لا ينبغي أن يعيش الناس بعد ستة آلاف سنة بلا دستور ولا قوانين ضامنة لحقوقهم وحرياتهم .. وسيكون من الملائم توقع الإعتراف بالحقوق الأساسية للشعب وقواه الإجتماعية والفكرية ما دام الإعتراف بحقوق الآخرين ، المختلَف عليها والتي تأكل من مكانة العراق وسيادته ومستقبله ، قد جرى بيسُر لم يكن هذا الجيل ليتوقع وقوعه أمام ناظريه وعلى هذا النحو ..

وإذا إحتوى هذا الكتاب على قدر ظاهر من النقد للسياسة العراقية خلال أزمة الخليج وبعد حربها فإن ذلك لا يعني أنه يبرر سياسات الآخرين أو يتغافل عن أخطائهم ، بل على العكس ، فهذا الكتاب يخلص الى نتيـجة غير مترددة بأن أكثر من طرف يشترك في تحمل أوزار ما حدث ، سواء في مقدماته او نتائجه ، وأن الخوف الذي توزع على جميع الأطراف خلال الحرب ، عندما كان كل طرف يشعر بالخطر الداهم من حواليه ، هو نفسه ما يمكن ان يعيد صياغة التفاهم بين أناس لا يحبون بعضهم البعض غير انهم لا يجدون عندما يعجزون عن تدمير بعضهم البعض غير ان يتعايشوا بحق الجيرة والحاجة الى الهدنة ، وهي هدنة إجبارية حقاً ، فإما أن تطول فتصبح سلام الأمر الواقع أو أن تنهار لتكون مجرد

إستراحة محاربين عادوا مجدداً الى إلقاء حمم النار والكلمات على بعضهم البعض .
وقدر تعلق الأمر بالعرض التاريخي الساخن الذي يحمله هذا الكتاب فإن الغضب والرفض هما وحدهما المشاعر التي تتملك الشاهد على التاريخ في نظرته الى إستمرار حالة الحصار على شعب العراق التي لا يبرر بقاءها أي إعتبار سياسي او حالة ظرفية قابلة للتحول الى سلسلة من الخيارات المفتوحة في أية لحظة .. إذْ أن ما حصل بعد الحرب كان إنتقاماً منظماً ضد شعب العراق وتصفية حسابات معه ربما كانت منتظرة منذ طرد العثمانيين وثورة العشرين وإعلان إستقلال دولته الحديثة ..
من هذه الزاوية في الرؤية ..
بل من هذا الموقع في الإطلال على المشهد .. لا ينبغي الإفتراض بأن تشريح الأداء السياسي وإستخراج عيوبه في هذه اللحظة من المراجعة يمكن ان يتحول الى تصفية حسابات ثأرية من جانب كل الذين إنتظروا لحظة ضياع العراق ليضربوا في لحم أبنائه وتاريخهم ، فتوصيف كارثة العراق والمنطقة بعد حرب الخليج لا يعني إنتاج مناخ يسمح بالثأر من العراق او التشفي بشعبه ، أو أن تسقط عليه عُقَد كل الفاشلين والساقطين من تاريخه السياسي الطويل .
وإن ما ينطبق على العراق ، يصح على دول كثيرة في المنطقة قدر تعلق الأمر بالدعوة لبناء المجتمع المدني وإستعادة شرائح إجتماعية تئن من تجاهل دورها السياسي ، ولذلك فان القاعدة التي تخص بلداً ستعني الجميع بصورة تلقائية ، و من الحق ان تـُفهم على هذا النحو ..
لنفــرق فـي كل الأحوال بين حكـــم مهــزوم وشـــعب مقــهور في العــــــراق ، فهل من الإنصاف أن يدفع هذا الشعب فواتير هزيمة لم يصنعها او يتسبب فيها لمجرد أنه يحيا في عصر قبلي يجري التعامل فيه مع الشعوب على تابعية حكامها وحسب !

❁ ❁ ❁

من المفجع حقاً أنّ الأمة التي كانت حافز إستثارة الكبرياء صارت موضع إستـحقاق للشـفقة .. وأنّ أولئك الذين كانوا يبشرون بوحـدتها ، ينكفئون على دواخل همومهم بعد قرن من الكفاح في العلن ، ليـحفظوا كرامات معرضة للسفح وحريات تُنكر على مستحقـيها ، وصارت الشعارات تتبادل مواقعها ، فلا وحدة بلا ديمقراطية .. بل ما جدوى وجود أمة مكبلة تتوحد تحت أحذية الطغاة وسياط الجلادين .. ؟ .. ما جدوى أن يتجمع العرب قطيعاً في معسكر عزل كبير إسمه ( الأمة ) حتى يتسيّدهم الحالمون بفرض السطوة .. ؟ وأيُ مجدٍ للأمة لا يشع إلا من حافات حراب القـتلة وهي تقطّع أوصال دعاة الوحدة والحرية .. ! .. أليس من الأحـق أن يتـمتع الإنسان بآدميته وحقوقه الانسانية الأولية أولاً قبل أن يحلم بدولته الـواحدة .. أيذهب حـطاماً إلى الدولة الحلم .. وهــل لهذه الدولة ان تسير بعكازات المشوهين والمعوقين والمقطّعة أوصالهم ؟
وقدر تعلق الأمر بهذا الكتاب ، فإنني أعترف أنّ لغة مقدمته قد تكون أكثر إستشعاراً لأزمة التاريخ الذي ستروِيه بعدئذٍ الصفحات الأخرى بكثير من الإسترخاء وفيض من المعلومات المتدفقة بجرعات ربما كانت أكثر من حاجة قارىء مثقل بالحيرة والأسئلة ..
المسرح هذه المرة يحتاج الى إخلاء من منظريّ مراحل البهجة والشعارات والتحزّب الذين إعتادوا إحالة الهزائم الى إنتصارات ، فهم يملأون خشبته منذ سنوات بعيدة بالضجيج والعويل والندب ليمنعوا ساعة التـــأمـل والمراجـعة والإعتـراف بالخطــأ .
إنّ جُـلّ ما نحتاجه هو صمتٌ عميق بعد سنين مريرة من الإستماع الى طبول الحروب .. وطبول المهرجين .